قراءة في كتاب: مع ابن طفيل في تجربته الفلسفية

د.إبراهيم بورشاشن

فاطمة ازحيمي

دكتوراه في الفكر والعقيدة

باحثة بجامعة محمد الأول بوجدة المغرب

مختبر قضايا التجديد في الدراسات الإسلامية والإنسانية.

مقدمة:

تندرج هذه القراءة ضمن محاولة تحليل كتاب مع ابن طفيل في تجربته الفلسفية[1] للدكتور إبراهيم بورشاشن، أستاذ الفلسفة بجامعة محمد الخامس بالرباط، وهو عمل يسعى إلى إعادة قراءة تجربة الفيلسوف الأندلسي ابن طفيل في أبعادها الفكرية والتاريخية والكتابية. وينطلق الكتاب من الاهتمام بنص حي بن يقظان بوصفه مدخلاً أساسياً لفهم هذه التجربة، غير أنه لا يقف عند حدود التحليل النصي المعزول، بل يتجه إلى إدراج هذا النص ضمن سياقه الحضاري الأوسع، بما يشمل تحولات الفلسفة الإسلامية في الغرب الإسلامي وعلاقاتها بامتداداتها المشرقية.

وتكمن أهمية هذا العمل في كونه يحاول مقاربة تجربة ابن طفيل بوصفها بناءً معرفياً مركباً تتداخل فيه عناصر الفلسفة والعلم والسياق السياسي والثقافي، فضلاً عن أساليب التعبير والكتابة الفلسفية. كما يولي اهتماماً خاصاً بمسألة التفاعل بين المرجعيات الفلسفية الكبرى في التراث الإسلامي، وما أنتجته من صيغ نظرية وسردية أسهمت في تشكيل ملامح المشروع الطفيلي.

وانطلاقاً من ذلك، تهدف هذه المراجعة إلى عرض أهم محاور الكتاب وتحليل بنيته الفكرية والمنهجية، مع إبراز أبرز النتائج التي انتهى إليها المؤلف.

أولا: في عتبات الكتاب

إنَّ الدارس لكتاب مع ابن طفيل في تجربته الفلسفية، يلحظ منذ الوهلة الأولى أن هذا العمل يندرج ضمن الدراسات الأكاديمية التحليلية التي تروم إعادة بناء التجربة الفلسفية للفيلسوف الأندلسي ابن طفيل في مختلف أبعادها. ومن خلال المؤشرات الخارجية يتبين أن الكتاب دراسة موسعة جاءت في حجم متوسط، إذ يقع في 422 صفحة، بما يعكس طابعه البحثي التفصيلي ورغبته في الإحاطة بمختلف جوانب التجربة الطفيلية.

ويحمل غلاف الكتاب لوحة فنية تصور رجلاً عربياً ممسكاً بكتاب، وإلى جانبه دواة وريشة، فضلاً عن شمعة تكاد تنطفئ وسبحة، وهي عناصر رمزية توحي بالتفاعل بين المعرفة العقلية والتجربة الروحية، بما ينسجم مع الموضوع المركزي للدراسة، القائم على الكشف عن تداخل الأبعاد الفلسفية والعرفانية في تجربة ابن طفيل.

أما من حيث البناء الداخلي، فيكشف فهرس الكتاب عن تنظيم أكاديمي يتسم بالتدرج والوضوح. فقد استهل المؤلف عمله بمدخل موسع خصصه لاستعراض الأدبيات السابقة حول ابن طفيل، مع تحديد معالم القراءة التي يقترحها في كتابه. ثم أفرد الباب الأول للتجربة السياسية لابن طفيل، متناولاً سيرته الفكرية والعلمية، وآثاره، وتكوينه المعرفي، إلى جانب سيرته السياسية في سياق الدولتين المرابطية والموحدية. أما الباب الثاني فقد خُصص للتجربة الفلسفية ذاتها، حيث بحث المؤلف في أسسها النظرية من خلال بيان علاقة ابن طفيل بفلاسفة الإسلام، مثل

1- مع ابن طفيل في تجربته الفلسفية، إبراهيم بورشاشن، مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء، الطبعة الأولى - 2010.

ابن باجة وابن سيناو أبو حامد الغزالي، ثم تتبع المحطات الأساسية في قصة حي بن يقظان، قبل أن ينتقل إلى دراسة الأساس العلمي في فكر ابن طفيل من خلال جانبيه الطبي والفلكي. أما الباب الثالث، فقد جعله المؤلف مجالاً لدراسة تجربة الكتابة الفلسفية عند ابن طفيل، متوقفاً عند قضيتي قلق العبارة الفلسفية والتقريب الفلسفي، ثم ختم الكتاب بخاتمة جامعة وقائمة للمصادر والمراجع والفهارس.

ويكشف هذا البناء العام عن اعتماد المؤلف خطة تجمع بين البعد التاريخي والسياسي، والتحليل الفلسفي، والنظر في أساليب الكتابة وآليات التعبير، الأمر الذي يدل على وعي منهجي بطبيعة الموضوع المدروس وتعقيده. كما يوحي هذا التنظيم بأن المؤلف يسعى إلى قراءة تجربة ابن طفيل بوصفها مشروعاً فكرياً متكاملاً تتداخل فيه السياسة والعلم والفلسفة والكتابة ضمن أفق ثقافي واحد.

وقبل الولوج في تفاصيل الكتاب، تبرز جملة من الأسئلة التي توجه القراءة، من قبيل: ما الغاية من جمع مختلف التجارب السياسية والعلمية والفلسفية لابن طفيل ضمن قراءة واحدة؟ وما طبيعة العلاقة التي يقيمها المؤلف بين السياق التاريخي والتكوين النظري للفيلسوف الأندلسي؟ وما دلالة ترتيب الأبواب وفق هذا التسلسل؟

ثانيا : قراءة في مضامين الكتاب

استهل الدكتور إبراهيم بورشاشن كتابه مع ابن طفيل في تجربته الفلسفية بمدخل يعد ركناً تأسيسياً في بنائه المنهجي، خصصه لاستعراض الأدبيات السابقة التي تناولت ابن طفيل وقصته حي بن يقظان، في محاولة لرسم الخريطة المعرفية للقراءات التي اشتغلت على النص. ويذهب المؤلف إلى أن السمة الغالبة على كثير من تلك القراءات تتمثل في تعاملها التجزيئي مع النص، إذ جرى تفكيكه وتأويله من زوايا معزولة دون استحضار وحدته الداخلية وبنيته الكلية. وفي هذا السياق يميز بين أنماط متعددة من القراءات؛ فمنها القراءات التقمصية التي تنظر إلى العالم بعيون "حي بن يقظان" وتتماهى مع تجربته، ومنها القراءات الإسقاطية التي رأت في النص سبقاً استشرافياً لكشوف فلسفية وعلمية لاحقة، فضلاً عن القراءات التاريخية التي سعت إلى ردّ أصول النص إلى منابع يونانية أو هندية. وفي مقابل هذه الاتجاهات، استعرض المؤلف عدداً من الدراسات التي عدّها أكثر إسهاماً في تأسيس بحث علمي رصين حول ابن طفيل، من بينها القراءة الفيلولوجية لليون غوتييه، والقراءة النقدية لمحمد أركون، والدراسة البيبليوغرافية للأستاذ محمد بنشريفة، ثم دراسة جمال الدين العلوي التي أثارت جملة من الإشكالات المعرفية القابلة للتحول إلى مشاريع بحثية مستقلة.

أما المنهج الذي اعتمده المؤلف في قراءته، فيصفه بالمنهج المتنوع، إذ لا يقتصر على التحليل الفلسفي المحض، بل يمتد إلى استكشاف الأسس الاجتماعية والثقافية والأصول الفلسفية التي تشكلت في إطارها تجربة ابن طفيل، مستفيداً في ذلك من أدوات التاريخ والأدب والفلسفة والمنطق. كما يوظف بعض المقاربات المعاصرة، ولا سيما ما يتعلق بالسيميائيات ونظرية الحكي، بما يسمح بقراءة النص في مختلف أبعاده، ويعكس سعيه إلى تجاوز المقاربات الاختزالية نحو بناء فهم تركيبي شامل للتجربة الفلسفية الطفيلية.

أما الباب الأول، المتعلق بالتجربة السياسية لابن طفيل، فقد استهله المؤلف بمقدمة سعى من خلالها إلى استكناه الخلفيات السوسيوثقافية التي تشكلت في إطارها شخصية ابن طفيل. واتخذ من خطبة الرسالة مدخلاً إجرائياً لهذا التحليل، معتبراً إياها نصاً كاشفاً عن أبعاد عقدية وسياسية ضمنية. ومن خلال استنطاق ألفاظ الخطبة وتحليل بنيتها الدلالية، حاول إبراز حمولتها الفكرية والسياسية بما يسمح بفهم انتماء ابن طفيل إلى المشروع الموحدي، لا باعتباره انتماءً سياسياً عارضاً، وإنما بوصفه انخراطاً في أفق فكري وإصلاحي أوسع.

أما الفصل الأول من هذا الباب،[1] فقد خُصص للسيرة الفلسفية لابن طفيل، حيث قدمه المؤلف بوصفه حلقة واصلة في ما يمكن تسميته بعقد فلاسفة الغرب الإسلامي. غير أن الكشف عن معالم هذه السيرة يواجه، بحسب المؤلف، جملة من العوائق المنهجية، في مقدمتها فقر المعطيات الواردة في كتب التراجم والطبقات، وتشتت الأخبار وتقاطعها، وهو ما دفعه إلى اعتماد منهج تجميعي تركيبي يقوم على جمع الإشارات المتفرقة في المصادر التاريخية والأدبية من أجل الاقتراب من أبرز المحطات التي طبعت مسار ابن طفيل، باعتباره رجل علم وسياسة في آن واحد.

وفي ما يتعلق بآثاره العلمية، تعد قصة حي بن يقظان أبرز آثاره التي لا خلاف في نسبتها إليه، إلى جانب أرجوزته الطبية وبعض النصوص الأدبية الأخرى. ويلاحظ المؤلف أن القاسم المشترك بين هذه الآثار يتمثل في القدرة الوصفية العالية، وجمالية الأسلوب، إلى جانب ميل واضح إلى توظيف عناصر الغرابة والإدهاش في البناء السردي. كما توقف عند إشكالية إمكان اعتبار حي بن يقظان سيرة ذاتية فلسفية لابن طفيل، على نحو ما قيل في المنقذ من الضلال لأبي حامد الغزالي، غير أنه يرجح صعوبة تثبيت هذا الرأي، لأن شروط السيرة الذاتية تقتضي قدراً من التطابق الحقيقي لا مجرد التقاطع أو الإمكان، فضلاً عن أن كثافة العناصر التخيلية والرمزية في النص تضعف فرضية قراءته باعتباره سيرة ذاتية مباشرة، وتبقيه في دائرة النص الفلسفي الرمزي ذي البنية القصصية.

ثم ينتقل المؤلف إلى الحديث عن السيرة السياسية لابن طفيل،[2] مبرزاً ما حظي به من ثقة داخل البلاط الموحدي، تجلت في إسناد مهام دقيقة إليه، من بينها الإشراف على أبناء الخليفة، ولا سيما يوسف بن عبد المؤمن. كما يفترض أن العلاقة بين الرجلين سبقت تولي يوسف الخلافة، مرجحاً أن يكون ميله إلى الفلسفة قد تشكل تحت تأثير ابن طفيل. ومن هنا يميز المؤلف بين مرحلتين في تشكل هذا البعد الفلسفي في شخصية الخليفة: مرحلة "التربية الفلسفية" المرتبطة بفترة ولاية يوسف على إشبيلية، حيث انصرف إلى التحصيل العلمي بما في ذلك الفلسفة والطب، ويرى أن ابن طفيل كان الأقدر على الاضطلاع بهذا الدور؛ ثم مرحلة "الرعاية الفلسفية" التي توافق فترة خلافته، حيث اشتدت الملازمة بينهما، وأسهم ذلك في اتساع هامش الحرية الفكرية، واستقدام العلماء، وازدهار العلوم والفلسفة، ولا سيما مع مشروع شروح ابن رشد لكتب أرسطو تحت رعاية الخليفة. وفي هذا السياق الحضاري يضع المؤلف تأليف حي بن يقظان باعتباره ثمرة لذلك المناخ الثقافي المزدهر.

وتبعاً لذلك، يتناول المؤلف جملة من الإشكالات الفلسفية التي سعى ابن طفيل إلى معالجتها، وعلى رأسها إشكالية العلاقة بين الحكمة والشريعة. وقد استعان بنص حي بن يقظان للكشف عن معيقات فعل التفلسف في سياق ثقافي كان يغلب عليه التحفظ تجاه الفلسفة والنظر بعين الارتياب إلى الفيلسوف، إلى جانب عائق آخر نابع من بعض التصورات الفلسفية التي أفضت، في نظره، إلى إشاعة آراء مخالفة للشريعة، الأمر الذي ألحق ضرراً بصورة التفلسف ذاته داخل المجال الإسلامي.

يبدو الباب الثاني من أكثر أبواب الكتاب كثافة، وقد درس فيه الأساسين الفلسفي والعلمي لتجربة ابن طفيل.

أما الأساس الفلسفي،[3] فقد سعى المؤلف فيه إلى إعادة تركيب البنية النظرية لفكر ابن طفيل من خلال ربطها بمصادرها المشرقية والمغربية، مع تتبع كيفية تشكلها داخل المتن الحكائي لحي بن يقظان. وقد اتخذ من مقدمة الرسالة مدخلاً أساسياً للكشف عن اختيارات ابن طفيل الفكرية، باعتبارها فضاءً أكثر مباشرة وأقل

1- مع ابن طفيل، ص 49- 73.

2- مع ابن طفيل، ص 75- 144.

3- مع ابن طفيل، ص 151- 261.

احتفاءً بالرمز، الأمر الذي أتاح له استجلاء طبيعة العلاقة التي أقامها ابن طفيل مع فلاسفة الإسلام، خاصة ابن باجة وابن سينا والغزالي. وفي هذا الإطار، أبرز المؤلف أن التجربة الطفيلية لا يمكن فهمها بوصفها امتداداً بسيطاً للتقليد المشائي في الغرب الإسلامي، وإنما باعتبارها محاولة لتركيب أفقين معرفيين متباعدين ظاهراً: أفق النظر العقلي الذي مثله ابن باجة، وأفق الذوق والكشف الذي تمثل في الفلسفة المشرقية والتجربة الغزالية.

وقد وقف المؤلف مطولاً عند علاقة ابن طفيل بابن باجة، معتبراً إياه المؤسس الحقيقي للخطاب الفلسفي في الغرب الإسلامي، ومبيناً أن ابن طفيل تعامل معه بقدر من التقدير النقدي في الآن نفسه. فمن جهة، ثمن مشروعه القائم على التوحد العقلي والارتقاء بالنفس عبر النظر، ومن جهة أخرى سجل عليه ما رآه قصوراً في استيعاب البعد الذوقي للتجربة المعرفية. ولذلك خلص إلى أن الاختلاف بين الرجلين ليس اختلافاً في طبيعة المشروع الفلسفي، بل في درجته وأفقه؛ إذ حاول ابن طفيل أن يوسع المشروع الباجي بإدماج التجربة الصوفية ضمن البناء الفلسفي، بحيث لا يعود الوصول إلى الحقيقة مقتصراً على البرهان النظري وحده. ومن هنا فسر المؤلف حضور العناصر السينوية والغزالية داخل القصة، معتبراً أن ابن طفيل استثمر الفلسفة المشرقية لتجاوز ما اعتبره نقصاً في التجربة الباجية.

وفي قراءته للحضور السينوي، أبرز المؤلف أن ابن طفيل لم يكتف بالتأثر ببعض القضايا النظرية لابن سينا، بل استلهم كذلك بنيته الرمزية وأفقه الإشراقي، وهو ما يظهر في استعارة عنوان حي بن يقظان وبعض الشخصيات الرمزية، فضلاً عن تبني جملة من التصورات المرتبطة بالنفس والمجاهدة والمعرفة. أما الغزالي، فقد حضر باعتباره نموذجاً لإمكان التوفيق بين الحكمة والتجربة الروحية، ولذلك رأى المؤلف أن أثر مشكاة الأنوار لا يقتصر على الجانب المفهومي، بل يمتد إلى البنية الأسلوبية والرمزية للنص الطفيلي نفسه.

ومن أبرز القضايا التي ناقشها المؤلف في هذا الباب إشكالية التصوف والعقل عند ابن طفيل، حيث حاول تجاوز القراءة التي ترى في النص رفضاً للعقل أو انتصاراً مطلقاً للذوق. وانتهى إلى أن المرفوض عند ابن طفيل ليس العقل في ذاته، وإنما ادعاء المنطق البرهاني القدرة على استيعاب جميع مراتب الوجود، خاصة في المجال الميتافيزيقي الذي تتجاوز حقائقه حدود الإدراك النظري. ولذلك ظل المنطق حاضراً في القسم النظري من القصة، بينما تراجع لصالح التجربة الذوقية كلما اقترب النص من الحديث عن المعرفة الإلهية وأحوال الفناء. وبهذا المعنى، يرى المؤلف أن ابن طفيل بنى مشروعه على مزاوجة دقيقة بين البرهان والكشف، أو بين التوحد الباجي والمجاهدة السينوية–الغزالية، بما يجعل تجربته محاولة لترميم الانقسام بين العقل والذوق داخل المجال الفلسفي الإسلامي.

أما في ما يتعلق بالأساس العلمي[1] لفكر ابن طفيل، فقد أبرز المؤلف أهمية التكوين الطبي والفلكي في بناء رؤيته الفلسفية، معتبراً أن الطب مثل المدخل الطبيعي إلى التفلسف بحكم صلته بالفلسفة الطبيعية. كما أشار إلى أن المعطيات الفلكية الواردة في حي بن يقظان، رغم قلتها، تؤدي وظيفة فلسفية تتجاوز بعدها العلمي المباشر، إذ تسهم في بناء تصور كوني منسجم مع الأفق الأرسطي السائد في فلسفة العالم العلوي.

أما الباب الثالث من الكتاب فقد خُصص لتجربة الكتابة الفلسفية عند ابن طفيل. وقد استهله المؤلف بمقدمة[2] تناول فيها بنية رسالة حي بن يقظان، مبيناً أنها تتكون من ثلاثة أقسام رئيسة: قسم أول يمثل مقدمة في تاريخ الفلسفة عند المسلمين، يستعرض فيها ابن طفيل عدداً من الإشكالات الفلسفية والقضايا المنهجية المرتبطة بطرائق التعبير عنها؛ وقسم ثانٍ يشكل المتن الرئيس للرسالة، وهو وحدة سردية واسعة تنقسم بدورها إلى جانب نظري علمي وآخر عملي تأملي؛ ثم قسم أخير يأتي في صورة اعتذار أو خاتمة ذات حمولة سوسيوثقافية، يوضح فيها

1- مع ابن طفيل، ص 262- 283.

2- مع ابن طفيل، ص 287- 289.

المؤلف سياق الكتابة وحدود الخطاب. ومن خلال هذا البناء يرى المؤلف أن ابن طفيل كان واعياً بأهمية الكتابة الفلسفية، سواء من حيث فهم النصوص الفلسفية، أو إدراك حدود التعبير الفلسفي، أو السعي إلى تقديم القول الفلسفي في قالب أدبي قادر على استيعاب المعاني المعقدة وتبليغها.

وفي الفصل الأول[1] من هذا الباب عالج المؤلف إشكالية قلق العبارة الفلسفية، وهي الإشكالية التي عبّر عنها ابن طفيل نفسه في مقدمة رسالته، خصوصاً عند حديثه عن ابن باجة، حيث عاتبه على عدم إتمام عدد من مؤلفاته وعلى ما يعتري عبارته من غموض. وفي هذا السياق تظهر كذلك صلة ابن طفيل بابن رشد، إذ يرى المؤلف أن من أبرز نقاط الالتقاء بين الفيلسوفين الوعي بمشكلة التعبير الفلسفي. ويستحضر ما تذكره المصادر التاريخية من أن ابن طفيل هو الذي رشّح ابن رشد للخليفة الموحدي لشرح كتب أرسطو، وهو مشروع كان يهدف إلى غايتين أساسيتين: رفع الغموض عن العبارة الفلسفية وتقريب المضامين الفلسفية إلى الفهم. ومن هنا حاول المؤلف تفسير أسباب اختيار ابن طفيل لابن رشد لهذه المهمة بدلاً منه، مبرزاً شغف ابن رشد بالفلسفة الأرسطية وانشغاله العميق بقضايا عصره الفلسفية. كما عرض أنماط الكتابة الفلسفية عند ابن رشد والأساليب التي اعتمدها لتحقيق هذا المقصد، مبيناً أن الرعاية السياسية التي حظي بها مشروعه أسهمت في جعله أحد أبرز مفكري عصره في شرح أرسطو وتقديمه بوضوح منهجي. ثم انتقل المؤلف إلى قراءة نص ابن طفيل من منظور رشدّي، فميّز بين شخصيتين داخله: شخصية الأديب وشخصية الفيلسوف، كما فرّق بين مستويين للخطاب: مستوى القول الفلسفي ومستوى الصورة الأدبية. وبناءً على ذلك يمكن النظر إلى الجزء النظري من القصة باعتباره تقريباً للقول البرهاني، في حين يتحرر الجزء العملي منها من القيود المنطقية الصارمة. ومن هنا يفسر المؤلف سكوت ابن رشد عن الأثر الفلسفي لصديقه ابن طفيل.

أما الفصل الثاني[2] فقد خُصص لمسألة التقريب الفلسفي، حيث يرى المؤلف أن ابن طفيل حين نسج قصته لم يفصلها عن أفق التداول الثقافي الإسلامي، بل سعى إلى صياغة خطاب فلسفي قادر على التواصل مع هذا الأفق. وفي هذا السياق استحضر تجربتين سابقتين في تقريب القول الفلسفي، هما تجربة ابن حزم في كتاب التقريب، وتجربة البطليوسي في كتاب الحدائق. فقد سعى ابن حزم إلى تبسيط لغة المنطق وتكييف مضامينه مع التداول الثقافي الإسلامي من خلال تقريب مفاهيمه بالأمثلة الفقهية والشرعية، مؤكداً أهمية المنطق في فهم الشريعة. أما البطليوسي فقد اعتمد أسلوباً مغايراً يقوم على تليين العبارة الفلسفية وتقريبها إلى الذوق العربي، فصاغ بعض المعاني شعراً، واستشهد بالنصوص القرآنية والحديثية، ووظّف معجماً إسلامياً في عرض المضامين الفلسفية، كما دافع عن الفلاسفة وسعى إلى تبرئة بعضهم من الآراء المخالفة للعقيدة.

وفي ضوء ذلك يرى المؤلف أن ابن طفيل سلك المسار نفسه في تقريب الفلسفة، إذ عاش في بيئة ثقافية لم تكن متقبلة للتفلسف، شأنه شأن ابن حزم والبطليوسي، فأنشأ نصاً يجمع بين البيان العربي والمعجم القرآني والصوفي، إلى جانب المصطلح الفلسفي، كما صاغ كثيراً من مقاطع قصته على منوال التعبير القرآني. أما على مستوى المضامين، فقد سعى إلى إرساء أصول شرعية لبعض المعاني الفلسفية ونفي التعارض بين الحكمة والشريعة. ومن القضايا التي توقف عندها المؤلف في هذا السياق مسألة الخلق، والفعل الإنساني، وعلاقة الحكمة بالشريعة.

كما يطرح المؤلف سؤالاً مهماً يتعلق بالمخاطَب في هذا التقريب: هل هو الجمهور أم الخاصة؟ ومن خلال قراءة خاتمة القصة يرى أن ابن طفيل لم يقصد الجمهور العام، بل كان يسعى إلى بيان توافق الحكمة مع الشريعة

1- مع ابن طفيل، ص 391- 320.

2- مع ابن طفيل، ص 321- 385.

دون تعريضها لعامة الناس. غير أن حضور الرمز بقوة داخل النص يجعل عملية التقريب مشوبة بشيء من الغموض، إذ يميل أسلوب ابن طفيل إلى المنحى الرمزي الذي نجده عند ابن سينا والغزالي، خاصة في استعمال السرد والإشارة واللغة الرمزية، وهو ما يقربه من بعض كتابات الغزالي مثل المنقذ من الضلال ومشكاة الأنوار.

ومن هنا يذهب المؤلف إلى أن الطابع الغامض والمتردد في حي بن يقظان يجعل النص قريباً من السرد العجائبي أو الفانتستيكي، في الوقت الذي تمنع فيه التوجيهات الواردة في مقدمة الرسالة قراءته على هذا النحو الخالص؛ فالحكي لم يكن غاية في ذاته، بل وسيلة لتمرير قضايا فلسفية دقيقة ومعقدة. ولذلك فإن الغموض الذي يكتنف النص يعود جزئياً إلى طبيعة الموضوعات الميتافيزيقية التي يعالجها، وهي موضوعات اتسمت بالصعوبة حتى عند الفلاسفة السابقين. ومن ثم استعان ابن طفيل بالبناء الأدبي بما يتيحه من إمكانات تعبيرية واسعة، وجعل من القارئ شريكاً في عملية التأويل وفك الرموز.

أما خاتمة الكتاب[1] فقد جاءت خلاصة جامعة لما تضمنته الدراسة، حيث تقدم تصوراً إجمالياً للتجربة الفلسفية عند ابن طفيل وصلاتها بالتجارب الفلسفية الأخرى، كما تعرض رؤية مركزة لبنية حي بن يقظان من حيث الأسلوب والمضمون. ويخلص المؤلف في النهاية إلى أن شخصية ابن طفيل تميزت بتكوين علمي وفلسفي واسع، وأن تجربته الفكرية لم تكن ذات مسار واحد، بل مرت بمراحل متعددة انتقلت من الحس إلى العقل، ومن العقل إلى الحدس، ثم إلى الذوق

ثالثا: تقويم الكتاب

انطلاقاً من الملخص التحليلي لمضامين كتاب مع ابن طفيل في تجربته الفلسفية للدكتور إبراهيم بورشاشن، يمكن القول إن الدراسة تقدم قراءة تركيبية متماسكة للتجربة الفكرية للفيلسوف الأندلسي ابن طفيل، إذ يسعى المؤلف إلى إعادة بناء هذه التجربة في أفقها الشامل، متجاوزاً المقاربات الجزئية التي اقتصرت على تحليل نص حي بن يقظان في معزل عن سياقه التاريخي والفكري. وتبرز أهمية هذا العمل في اعتماده مقاربة متعددة الأبعاد تجمع بين التحليل الفلسفي والاستحضار التاريخي والاجتماعي والثقافي، بما يسمح بفهم تجربة ابن طفيل بوصفها نتاجاً لتفاعل مركب بين الفكر الفلسفي والواقع السياسي والثقافي لعصره.

وفي هذا الإطار يبرز المؤلف أثر البيئة الموحدية في تشكل أفق التفلسف عند ابن طفيل، كما يكشف عن تداخل مسارات معرفية متعددة داخل مشروعه الفكري، حيث تتقاطع الفلسفة المشائية الممثلة في ابن باجة مع النزعة الإشراقية عند ابن سينا، إلى جانب الأثر الروحي والفكري الواضح لتجربة أبي حامد الغزالي. ومن خلال هذا التركيب يسعى المؤلف إلى إبراز خصوصية المشروع الطفيلي الذي لا يكتفي بالنظر العقلي الخالص، بل يزاوج بين البرهان والذوق، وبين المعرفة النظرية والتجربة الروحية.

كما يبرز التحليل أن قصة حي بن يقظان لم تكن مجرد عمل أدبي رمزي، بل شكلت أداة فلسفية لتقريب القول الفلسفي داخل المجال الثقافي الإسلامي، عبر توظيف السرد والرمز واللغة الدينية، بما يسمح بتمرير قضايا ميتافيزيقية معقدة ضمن قالب حكائي قابل للتلقي. وهكذا يخلص المؤلف إلى أن تجربة ابن طفيل تمثل محاولة فكرية لردم الهوة بين الحكمة والشريعة، وإقامة تصور معرفي متدرج ينتقل من الحس إلى العقل ثم إلى الحدس والذوق، وهو ما يجعل مشروعه الفلسفي لحظة تركيبية مهمة في تاريخ الفلسفة في الغرب الإسلامي.

يمكن تسجيل عدد من مواطن القوة العلمية في كتاب مع ابن طفيل في تجربته الفلسفية للدكتور إبراهيم بورشاشن، لعل أبرزها تمكن الباحث من جمع المتفرق من الأخبار والمعطيات المتعلقة بحياة الفيلسوف الأندلسي ابن

1- مع ابن طفيل، ص 387- 396.

طفيل، وهي مهمة ليست يسيرة بالنظر إلى ما تعانيه سيرته من فراغات واضحة في كتب التراجم والمصادر التاريخية. فقد استطاع المؤلف، من خلال تتبع الإشارات المتناثرة في المصادر الفلسفية والتاريخية والأدبية، إعادة تركيب صورة أقرب إلى التكامل لشخصية ابن طفيل العلمية والسياسية، وربط مختلف الظروف الثقافية والسياسية التي أحاطت بحياته.

كما يتميز الكتاب بغناه المعرفي، سواء في متنه التحليلي أو في هوامشه التوثيقية، إذ يكشف عن اطلاع واسع على الأدبيات العربية والغربية المتعلقة بابن طفيل وقصة حي بن يقظان، الأمر الذي يمنح الدراسة بعداً توثيقياً رصيناً ويجعلها مرجعاً مهماً في هذا المجال. ويضاف إلى ذلك اعتماد المؤلف منهج قراءة يضع نص ابن طفيل ضمن شبكة علاقاته الفكرية من خلال دراسته في ضوء النصوص الحافة به داخل التراث الفلسفي، سواء نصوص فلاسفة الغرب الإسلامي مثل ابن باجة وابن رشد، أو نصوص الفلاسفة المشرقيين مثل ابن سينا وأبي حامد الغزالي، وهو ما أتاح فهماً أعمق لموقع التجربة الطفيلية داخل السياق العام للفلسفة الإسلامية، وكشف عن طبيعة التفاعل الفكري بين المشرق والمغرب الإسلامي في بناء هذا المشروع الفلسفي.

وبذلك يقدم الكتاب قراءة تركيبية تتجاوز التحليل المعزول للنص، نحو إدراج فكر ابن طفيل ضمن حركية أوسع من التفاعل الفلسفي والثقافي في عصره.

يمكن، في المقابل، تسجيل بعض الملاحظات النقدية على كتاب مع ابن طفيل في تجربته الفلسفية للدكتور إبراهيم بورشاشن، وهي ملاحظات لا تقلل من قيمته العلمية، بقدر ما تتصل ببعض الجوانب المنهجية في عرضه وتحليله.

فمن جهة أولى، يبدو أن اعتماد المؤلف المكثف على ما يمكن تسميته بالنصوص الحافة بنص حي بن يقظان، ولا سيما نصوص فلاسفة الإسلام، أتاح توسيع أفق المقارنة وإغناء التحليل، غير أن هذا الحضور الكثيف للنصوص الموازية قد يؤدي في بعض المواضع إلى تشتيت تركيز القارئ عن المتن الطفيلي نفسه، بحيث يتحول التحليل أحياناً إلى تتبع موسع لتلك المرجعيات الفكرية أكثر من كونه قراءة مباشرة ومستمرة لنص ابن طفيل.

ومن جهة ثانية، يمكن تسجيل ملاحظة تتعلق بالبناء العام للكتاب؛ فعلى الرغم من وضوح الخطة في خطوطها الكبرى، فإن توزيع بعض الموضوعات بين الأبواب لا يخلو من قدر من التداخل، إذ كان بالإمكان، من الناحية المنهجية، إحكام الربط بين بعض القضايا التي تفرقت في أبواب متعددة، ولا سيما ما يتعلق بالعلاقة بين التجربة الفلسفية والتجربة الكتابية عند ابن طفيل، وهو ما قد يمنح البناء العام قدراً أكبر من التكثيف والترابط. ومع ذلك، تبقى هذه الملاحظات محدودة الأثر إذا ما قيست بالجهد التحليلي الواسع الذي بذله المؤلف في إعادة قراءة تجربة ابن طفيل ضمن سياقها الفلسفي والتاريخي.

رابعا: في ختام المراجعة.

وخلاصة القول، إن كتاب مع ابن طفيل في تجربته الفلسفية يقدم قراءة شمولية للتجربة الفكرية لابن طفيل، تتجاوز تحليل نص حي بن يقظان في ذاته نحو إدراجه ضمن سياقاته التاريخية والفكرية والعلمية الأوسع. وينطلق المؤلف من تصور يربط هذه التجربة بالشبكة المركبة من المؤثرات السياسية والفلسفية والثقافية التي أسهمت في تشكلها، في ارتباط بالبيئة الموحدية وبامتدادات الفكر الفلسفي في المشرق والمغرب الإسلامي.

وفي هذا الإطار، يُبرز الكتاب الطابع التركيبي للفكر الطفيلي من خلال تداخل مرجعياته بين الفلسفة المشائية عند ابن باجة، والنزعات الإشراقية والعرفانية عند ابن سينا، والأثر الغزالي في إعادة صياغة العلاقة بين الحكمة والتجربة الروحية، مع توظيف هذه العناصر داخل بناء سردي رمزي يتجاوز حدود الحكاية إلى مستوى القول

الفلسفي.

كما يولي المؤلف أهمية خاصة لمسألة التقريب الفلسفي، حيث يُفهم حي بن يقظان بوصفه محاولة لتمرير القول الفلسفي داخل أفق ثقافي غير متقبل له مباشرة، عبر السرد الرمزي واللغة القرآنية والمعجم الصوفي، بما يجعل النص وسيلة لتقريب الفلسفة من المتلقي مع الحفاظ على عمقها الإشكالي.

وبذلك يعكس الكتاب رؤية تركيبية للتجربة الطفيلية تقوم على الجمع بين الحكمة والشريعة، وبين العقل والذوق، ضمن مسار معرفي متدرج يربط الحس بالبرهان ثم بالحدس والتجربة الروحية.